النثر

الخطابة

كان ظهور الإسلام بالدعوة العظمى من أهم الأسباب التي بلغت بالخطابة غاية كمالها، وجعلت الأمر في أيدي رجالها. فإن الدعوة إلى الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع الفتن، ورد البدع، وتحميس الجند، كل أولئك من أغراض الخطابة، وكان لها من آي القرآن وحججه معين لا ينضب، ومدد لا ينفد. ولما اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان وتعددت الفرق رقت الخطابة رقيا عظيما، لاعتماد كل حزب عليها في نشر نحلته. وتأييد دعوته.

وأهم ما يميزها في هذا العصر عذوبة ألفاظها، ومتانة أسلوبها، وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن وانتهاجها منهجه في الإرشاد والإقناع، وابتداؤها بحمد الله والصلاة على رسوله.

وظل العرب على ما ألفوه في الجاهلية من لوث العمامة واتخاذ المخصرة والوقوف على نشز من الأرض، والخطبة من قيام، إلا الوليد ابن عبد الملك فإنه خطب وهو جالس.

وجملة القول أن ليس في عصور اللغة عصر زها بالخطابة وحفل بالخطباء كهذا العصر لانصراف العرب عن الشعر إليها. اعتمادهم في الدين والسياسة عليها.

أشهر خطبائه الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدون، وسحبان وائل، وزياد ابن أبيه، والحجاج بن يوسف، وقطَرِي بن الفجاءة.

محمد رسول اللّه
صلى اللّه عليه وسلم
مولده ونشأته وبعثته

ولد سيدنا محمد ابن عبد المطلب ابن هاشم القرشي في مكة صباح اليوم التاسع أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، أو اليوم العشرين من شهر ابريل سنة 571 للميلاد، في مهد اليتم والعدم، فقد استوفى أبوه ظمء حياته حين كان هو جنيناً. ولم يكد يحبو للسادسة من عمره حتى استأثر الله بأمه، فحضنه جده سنتين حضانة إعزاز ومحبة. ثم أوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب شقيق أبيه، فكلفه على رقة حاله وكثرة عياله. ولو جرى الأمر على منهاج الطبيعة لشب محمد على أخلاق اليتامى وعاد الجاهلية، ولكن الله تولى تأديبه وتهذيبه، فكلمه بالعقل الرجيح، والخلق السجيح، والنفس الرضية، والحياة الوقور، والحلم الرفيق، والصبر المطمئن، والصفح الجميل، واللسان الصادق، والذمة الوثيقة، والجأش القوي، والفؤاد الجميع. ثم طهره من أرجاس الوثنية، فلم يشرب الخمر، ولم يأكل مما ذبح على النصب، ولم يشهد للأوثان عيداً ولا حفلا، وسمت نفسه الكبيرة على حداثتها إلى ابتغاء الرزق بحيلته وكده، فتصرف في التجارة على عادة قومه حاسراً لها عن ساقه ويده. وشاعت له في الناس فضائل الصدق والحذق والأمانة، فطلبت إليه السيدة خديجة بنت خويلد إحدى عقائل القرشيين وغنياتهم أن يتجر في مالها، فسافر إلى الشام مع خادمها ميسرة فنجحت سفرته وربحت صفقته. ثم ارتد إلى مكة فهز من عطف السيدة ما رأت من جزالة الربح وأمانة الرابح فخطبته إلى نفسها، وهي في سن الأربعين وهو في حدود الخامسة والعشرين، فرضى زواجها، وخطبها عمه إلى عمها، وكان لها من جليل الأثر في الإسلام سهم ربيح. ثم مضى الرسول يضرب في الآفاق إلى الأسواق يكسب لأهله، وينمي ثروة زوجه؛ ونفسه عازفة عن متع الحياة، صادفة عن لذاذة العيش، فلم يطمع في ثراء ولم يطمح إلى منصب، بل كان يخلى ذرعه من صوارف الدنيا الليالي

الطوال فيعتكف في غار حراء يتعبد ويتأمل، ويتجه بروحه الصافي اللطيف إلى الملأ الأعلى حتى أوحى إليه في هذا الغار بالرسالة والمعجزة وعمره يومئذ أربعون سنة قمرية وستة أشهر. فانقلب إلى زوجه مضطرباً فطمأنته وقالت له: والذي نفس خديجة بيده لا يخزيك الله أبداً! إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. وفتر الوحي مدة، ثم نزل على قلبه الروح الأمين بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ [المدثر: 1 – 3] فقام بأعباء الرسالة والتبليغ ثلاث حجج في طي الخفاء. ثم أمر أن يصدع بالدعوة، فعالن بها قريشاً وسفه أحلامها، وعاب أصنامها، فكاشفوه بالعداء، وقصدوه بالإيذاء، ونصبوا له الحبائل، وتربصوا به الدوائر، وهو يتلقى كل ذلك بجنة الصبر وعدة الإيمان، ومن ورائه عمه أبو طالب يذود عنه ويحميه، وزوجه السيدة خديجة تواسيه وتقويه، حتى سلخ على هذه الحال الشديدة عشر سنين. وفي السنة العاشرة من رسالته فجعه الموت في ذلك العم النبيل، وفي تلك الزوجة الفاضلة في يومين متقاربين، فاشتد عليهما حزنه، وحرج بعدهما في مكة مقامه. فانتوى الهجرة بالمسلمين إلى المدينة – وقد أسلم فيها كثير من الأوس والخزرج – فأحس المشركون منه هذا العزم فائتمروا به ليقتلوه. ولكنه خرج ليلة اجتماعهم على قتله هو وصديقه أبو بكر إلى المدينة تكلؤهما عين لا تغفو وقوة لا يقام لها بسبيل. فبلغاها يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة 530 من مولده، وهو يوافق اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر سنة 622م. فكانت هذه الهجرة المباركة مبدأ لعلو كلمته وانتشار دعوته وتمام نصرته. واستمر يجاهد المشركين: يجادلهم بالقرآن، ويجادلهم بالسيف، حتى انحسر العمى وإنجاب الشرك، وعلت شمس التوحيد في أفق الوجود. وحينئذ نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3] فلم يأت على نزول هذه الآية الكريمة ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول بالحمى ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى يوم الاثنين 13 من ربيع الأول سنة 11 هجرية، 8 من يونيو سنة 632 ميلادية.

صفته

وصفه بعض من رآه قال. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع [1] وأقصر من المشذب؛ عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرقت عقيقته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره؛ أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ من غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين له نور يعلوه، ويحسبه من يتأمله أشم؛ كث اللحية، أدعج، سهل الخدين، ضليع للفم، أشنب مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة؛ معتدل الخلق بادناً متماسكا سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، اشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، سبك العصب، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء. إذا زال تقلعاً، ويخطو تكفؤاً، ويمشي هوناً. ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى من لقيه بالسلام. وكان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم؛ دمثا ليس بالجافي ولا المهين. إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح عض طرفه. جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام".

فصاحته

تقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخلص القبائل منطقاً وأعذبها بياناً؛ فولد في بني هاشم، ونشأ في قريش، واسترضع في بني سعد. فكان أفصح العرب لساناً بالفطرة. وقد حدث بذلك عن نفسه فلم يزيف حديثه ولم يدفع قوله. وفصاحة الرسول أشبه بالإلهام والفيض، فلم يعانها ولم يتكلفها ولم يرتض لها، وإنما أسلست له الألفاظ وأسمحت له المعاني فلم يند في

---

(1) انظر شرح هذا كله في آخر الكتاب.

لسانه لفظ، ولم يضطرب في أسلوبه عبارة، ولم يعزب عن علمه لغة، ولم ينب عن خاطره فكرة وكان كلامه كما قال الجاحظ: الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف. استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح من معناه، ولا أبين عن فحواه، من كلامه صلى الله عليه وسلم.

أثر الحديث في اللغة والأدب[1]

أما أثر هذه البلاغة الروحية والفصاحة النبوية في اللغة وآدابها فأبين من أن يبين، فإنه عليه الصلاة والسلام قد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من قوة الطبع وصفاء الحس ومحض السليقة وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومؤازرة الوحي، فكان يقتضب ويتجوز ويشتق، وينهج المذاهب البيانية، ويرتجل الأوضاع التركيبية، ويضع الألفاظ الاصطلاحية، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان، وسرا من أسرار اللسان، يزيد في ميراث اللغة، ويرفع من قدر الأدب. كقوله عليه الصلاة والسلام: مات حتف أنفه[2]. الآن حمى الوطيس. هدنة على دخن. يا خيل الله اركبي. لا ينتطح فيها عنزان. وقوله الحادي النساء رويدك! رفقاً بالقوارير. وقوله في يوم بدر: هذا يوم له ما بعده. ناهيك بما استحدثه عليه الصلاة والسلام من أساليب الدين وألفاظ الشريعة مما لم يأت به الكتاب.

---

(1) راجع صفحتي 108، 109.

(2) روى عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله (ص). وسمعته يقول: مات حتف أنفه وما سمعتها من عربي قبله: فوردوها إذن في لامية السموءل المشهورة دليل على أن هذه القصيدة منحولة كلها أو بعضها.

عمر بن الخطاب

نشأته وحياته

ولد أبو حفص عمر الفاروق ابن الخطاب القرشي بعد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاث عشرة سنة، ونشأ نشأة الفتيان من قريش، فرعى الماشية صغيراً، ومارس التجارة والحرب كبيراً، ثم أخذ نفسه بثقافة الأشراف من قومه، فتعلم الكتابة، وتقلب في التجارات بين اليمن والحبشة جنوباً، والشام والعراق شمالا حتى فخم أمره وعظم قدره. واشتهر في الناس ببلاغة اللسان، وثبات الجنان، وقوة الشكيمة، ومضاء العزيمة، فجعلت له قريش السفارة بينهم وبين قبائل العرب في السلم والحرب. ولما جاء الإسلام عارضه وناهضه. ولج في الخصومة والإنكار على متتبعيه، والمسلمون يومئذ لا يزيدون على خمسة وأربعين وجلا وثلاث عشرة امرأة يجتمعون سراً في دار الأرقم المخزومي، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يعز الإسلام به أو بأبي جهل، فاختاره الله لهذه السعادة، وشرح صدره للشهادة. وذلك أنه دخل على ختنه يؤنبه ويعذبه على إسلامه. فلحته أخته وأخرجت له صحيفة فيها آيات من سورة طه، فلما قرأها تعظمت في صدره وقال: أمن هذا فرت قريش؟ ثم سأل ابن الرسول؟ فقيل له في دار الأرقم. قال عمر: " فأتيت فضربت الباب فاستجمع القوم. فقال لهم حمزة: ما لكم؟ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج، فتشهدت، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة. قلت يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال بلى! قلت: ففيم الاختفاء؟ فخرجنا صفين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد. فنظرت قريش إلي وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة. فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق يومئذ".

كان ذلك وسنه ست وعشرون سنة والأذى قد اشتد بلاؤه بالمسلمين فاحتمل منه نصيبه، وعادى في الله صديقه ونسيبه، حتى تسلل المؤمنون لِواذاً إلى المدينة فارين من العذاب والفتنة. فلم يشأ عمر الجريء الباسل أن يخفي هجرته، وإنما تقلد سفيه وتنكب قوسه وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها،

فطاف وصلى، ثم أقبل عليهم وقال: " شاهت الوجوه! من أراد أن تثكله أمه ويتيم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي! " فلم يتبعه أحد.

ولم يزل مع رسول الله الصاحب الأمين يؤيده بسنانه ولسانه، ويرى له الرأي فيقره القرآن في بعض الحوادث، حتى قبض الرسول واختلف الأنصار والمهاجرون فيمن يكون الخليفة، فأيد هو أبا بكر حتى تمت له البيعة. وقام منه في خلافته مقام المستشار المؤتمن والقاضي العدل، حتى حضر الموت أبا بكر فلم يجد غيره من يعهد إليه بالخلافة فتولاها بقوة المؤمن المخلص، وعزمة القوي الشجاع، وحنكة لشيخ المجرب، وحكمة العبقري الأريب، ووضع يده على ملكوت كسرى وقيصر، وطفق وحده وهو في قلب الصحراء الجدبية يدبره ويسوسه. فيولى الولاة، ويختار القضاة، وينصب القواد، ويحرك الأجناد، ويبعث المداد، ويرسم الخطط، ويخطط المدن، ويسن السنن، ويقسم الفيء ويقيم الحدود، مما ينوء بالحكومات ويلتوي على المجالس. وكل ذلك في سداد رأى وثقوب ذهن وبعد نظر ومضاء عزم. وكل ذلك وهو يفترش الغبراء، ويعايش الدهماء، ويتدثر بالثوب الخلق، ويأتدم بالخل والزيت ولا تزيد نفقته من بيت المال على درهمين في اليوم. ولا تزال خلافته مثلا من المثل العليا في النظام والعدل والأمن. ولكن عمر الذي أرضى الله والناس بعدله وفضله، لم يرض عبداً مجوسياً اسمه لؤلؤة، إذ نصح له أن يحسن إلى مولاه المغيرة ابن شعبة، وألا يستكثر عليه درهمين في اليوم يؤديهما إليه، وهو نجار ونقاش وحداد، فاحتقد عليه هذه النصيحة، ودب إليه في الفلس وهو قائم يصلي بالناس في الفجر فطعنه بخنجر ذي نصلين طعنات كانت سبب موته. وذلك ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة 23هـ.

صفاته ومواهبه

كان أمير المؤمنين عمر طويلا جسيما، أبيض شديد الحمرة، أصلع أسيب، خفيف شعر العارضين، أصهب طرف السباب كبيره. وكان رفيقاً رقيقاً إلا إذا وجب الحق فلا تأخذه فيه هوادة. وقل من سلم من كبار الصحابة وأشراف القبائل من درته (عصاه). وكان محصد الرأي، محكم الحيلة، موثق الحجة،

شديد الورع، طاهر اليد، وساع العلم، حافل الخاطر بالحكمة، بارع الفقه في الدين، إذا ذكرت علياً ببلاغة اللسان ذكرته هو ببلاغة العقل. وحسبك أن تقرأ له عهوده وكتبه للقضاة والولاة والقادة فترى منه الفقيه المجتهد، والإداري الحازم والسياسي المحنك، وكل ذلك دون تلقين ولا وحي ولا اقتداء، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

نموذج من عهوده وخطبه

ذلك عهده إلى أبي موسى الأشعري حين ولاه القضاء، والقضاء، وقد اعتبره جمهور من القضاة أساساً للنظام وقاعدة للأحكام وما أجدره بذلك!.

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن قيس، سلام عليك. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة. فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم أعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك، وأعمد إلى أقربها عند الله وأشبهها بالحق. واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان. وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر؛ فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس. ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته؟ والسلام.

ومن خطبة له رضي الله عنه:

أيها الناس! إنه أتى على حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده. ألا وإنه قد خيل إلي أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون ما عند الناس. ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدُوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل، وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فقد رفع الوحي وذهب النبي عليه السلام، فإنما أعرفكم بما أقول لكم: ألا فمن أظهر لنا خيراً، ظننا به خيراً وأثنينا له عليه، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضنا عليه.

اقْدَعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة. وإياكم ألا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية. إن هذا الحق ثقيل مرئ، وإن الباطل خفيف وبيء، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة.

علي ابن أبي طالب

(المتوفى سنة 40 هـ)

ولد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة، وربي مع الرسول في بيته تخفيفاً عن أبيه. ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة كان علي مراهقاً، فآمن به وشب على حبه، وتغلغلت أصول الدين في قلبه، وخاطر بنفسه في سبيل الرسول ليلة هجرته، وأبلى البلاء الحسن في تأييده ونصرته، وشهد الغزوات كلها إلا تبوك فقد خلفه النبي فيها على أهله. فلما لحق الرسول بربه كان علي يرى أنه أحق بخلافته لمكانته من شرف القرابة والصهر. فلما بايع المسلمون أبا بكر وقام بعهده من بعده عمر، وأخطأته الشورى إلى عثمان، ناوص الجرة ثم سالمها، متحاملا في كل ذلك على نفسه. وقتل عثمان فبايعه الناس في الحجاز، وامتنع معاوية وأهل الشام معه غضباً لمقتل عثمان وقعود علي عن القتلة. وكان ما كان من الفتنة التي حللت العقد، وأوهنت العرى، وقسمت المسلمين إلى طائفتين تعادتا واقتتلتا حينا من الدهر. ثم قرت السيوف في الغماد دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين. وائتمر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة الثلاثة: معاوية وعمرو ابن العاص وعلي. فكان أمير المؤمنين نصيب ابن ملجم، فقتله غبلة بمسجد الكوفة سنة 40هـ وقد مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً.

أخلاقه ومواهبه

كان علي كرم الله وجهه قوي العضل صادق البأس شجاع القلب لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه. وكان حجة في الفقه، قدوة في الورع، شديد الشكيمة في الحق، قوي الثقة بالنفس، لا يعرف الهوادة في الدين ولا المرونة في الدنيا، فكانت هذه الخلال الكريمة من أنصار معاوية الداهية في الخلاف عليه. ولا تعلم بعد رسول الله فيمن سلف وخلف أفصح من علي من المنطق، ولا أبل ريقاً في الخطابة. كان حكيما تتفجر الحكمة من بيانه، وخطيباً تتدفق البلاغة على لسانه، وواعظاً ملء السمع والقلب، ومترسلا بعيد غور الحجة، ومتكلما يضع لسانه حيث شاء. وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام

المنشئين، وخطبه في الحث على الجهاد، ورسائله إلى معاوية، ووصفه الطاووس والخفاش والدنيا، وعهده للأشتر النخعي إن صح ذلك قد تهيأ له إلا لشدة خلاطه للرسول ومرانته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة في سبيله.

نموذج من كلامه

كلام أمير المؤمنين يدور على أقطاب ثلاثة. الخطب والأوامر، والكتب والرسائل، والحكم والمواعظ. وقد جمعها على هذا النسق الشريف الرضى في كتاب سماه (نهج البلاغة) لأنه كما قال بحق: " يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرب عليه طلابها، فيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد، ويضيء في أثنائه من الكلام في التوحيد والعدل ما هو بلال كل غلة، وجلاء كل شبهة " والصحيح أن أكثر ما في هذا الكتاب منحول مدخول.

فمن خطبه عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد. فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال: هذا جزاء ترك العقدة! أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قومتكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى. ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها. اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى، وكلت النزعة بأشطان الركي! ابن القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فو لهوا وله اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأهذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً، وصفاً صفاً، بعض هلك، وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء، ولا يعزون بالموتى. مره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه م الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون! فحق لنا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدي على فراقهم.

إن الشيطان يسني لكم طرقة، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة. فاصدفوا عن نرغاته ونفثاته، واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم واعقِلوها على أنفسكم.

ومن كلام له رضي الله عنه:

ألا وإن الخطايا خيل شمس حُمِلَ عليها أهلها، وخُلعت لجمها فتقحمت بهم في النار. وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة. حق وباطل، ولكل أهل. فلئن أمر الباطل فقديماً فعل، ولئن قل الحق فلربما ولعل، ولقلما أدبر شيء فأقبل. شغل من الجنة والنار أمامه. ساع سريع نجا، وطالب بطئ رجا، ومقصر في النار هوى، اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الحادة، عليهما باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنة، وإليها مصير العاقبة.

سحبان وائل

(المتوفى سنة 54 هـ)

نشأته وحياته

نشأ سحبان بن زفَر بن إياد في الجاهلية بين قبيلة وائل من ربيعة، ثم دخل في الإسلام عند ظهوره، واتصل بمعاوية، فحسن موقعه لديه، واعتمد في يوم الكلام عليه. وكان سحبان خطيباً غمر البديهة، قوي العارضة، متصرفاً في فنون الكلام، كأنما يتلو عن ظهر قلبه. وبه يضرب المثل في كل ذلك.

قدم على معاوية وفد من خراسان فطلب سحبان فلم يجده في منزله، فاقتضب من حيث كان وأدخل عليه. فقال له معاوية: تكلم. فقال: أحضروا إلي عصا. قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه. فضحك معاوية وأمر له بها. فلما جاءته ركلها ولم ترق في نظره، فجاءوه بعصا، وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا تلكأ ولا ابتدأ في معنى وخرج منه وقد بقى فيه شيء. فما زالت تلك حالة حتى دهش منه الحاضرون. فأشار إليه معاوية بيده فأشار إليه سحبان: لا تقطع على كلامي! فقال معاوية: الصلاة! قال هي أمامك! نحن في صلاة وتحميد، ووعد ووعيد. فقال معاوية! أنت أخطب العرب، قال سحبان: والعجم والجن والإنس. وهذه الحادثة تدل على قوته وجرأته وغزارة بحره، ومعرفته لقدره. ولكن المأثور من خطبه قليل في جانب شهرته. ولعل خلوه من الجاه والرياسة، وبعده عن الأحزاب والسياسة، وطول خطبه ووحدة موضوعها صرف الرواة عنه. كانت وفاته في خلافة معاوية سنة 54هـ.

نموذج من خطبه

إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار. أيها الناس فخذوا من دار ممركم إلى دار مقركم، ولا تهتكوا أستاركم، عند من لا تخفي عليه أسراركم؛ وأخرجوا من الدنيا قلوبكم، قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها حييتم، ولغيرها خلقتم، إن الرجل إذا هلك، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ فقدموا بعضاً يكون لكم، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم.

زياد ابن أبيه

(المتوفى سنة 53 هـ)

نشأته وحياته

كان للحارث بن كلدة الثقفي طيب العرب أمة بغى تدعى سمية، وعبد رومي يسمى عبيداً. فزوج العبد من الأمة. فولدت على فراشه زياداً في السنة الأولى من الهجرة! وقد ضربت فيه بعرق أشب فنشأ أريباً أديباً. ولم يكد أمر المسلمين يتسع ويتسق حتى دلت عليه كفايته، فاستكتبه أبو موسى الأشعري وإلى البصرة من قبل عمر، فتجلى نبوغه وظهر حذقه. ثم تقلبت به الأمور في عهد عمر حتى شاء أن يعزله عن عمله " لا لخيانة ولا لعجز، وإنما كره أن يحمل على الناس فضل عقله " على أن عمر كان يستكفيه المهم من أموره فيكفيه غير عاجز ولا مقصر. وخطب بين يديه يوما في حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها. فقال عمرو ابن العاص: لله در هذا الغلام! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه. وبلغ من إعجاب أبي سفيان به أن اعترف بعد إسلام لعلية قريش وفيهم علي أن زياداً ابنه، اشتملت عليه أمه منه وهو مشرك، ولكن خوفه من عمر منعه أن يلحقه بنسبه. ولما تولى الخلافة أمير المؤمنين علي وجد اليد المصرفة، والرأي الجميع، واللسان الذرب، فاستعمله، فراض له الأمور، وسد الثغور، وأحكم السياسة. وحاول معاوية أن يستميله إليه فأعياه حتى قتل علي، فرأى أن يستخلص مودته باستلحاقه بنسب أبيه وادعائه أخاً له، فصار يدعي بعد ذلك زياد ابن أبي سفيان. ولكن كثيراً من الناس لا يعترف له بهذا النسب، ثم ولاه المصرين، وهو أول من جمعا له فكان يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة مثلها. كانت وفاته بالطاعون 53هـ.

أخلاقه ومواهبه

كان زياد من ذوي الأحلام الوافرة والأذهان الحاضرة واللسان الفتيق، قال فيه الشعبي: ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً؛ فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً ".

وزياد من أقوى العمد التي قام عليها عرض بني أمية. رمى به معاوية وجوه الفتن فلم الشعث وشد السلطان، واشتد في العقوبة؛ فأخذ بالظنة، وعاقب علي الشبهة، وقتل المعلن، واستصلح المسر، وخافه الناس خوفا شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل والمرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بابه. وهو أول من أعلن الحكم العرفي الإسلام بخطبته المعروفة بالبتراء[1] وهي التي خطبها حين قدم البصرة.

نموذج من كلامه: خطبته البتراء

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغي الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم. من الأمور التي ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول. إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا. وسدت مسامعه الشهوات، واختار القانية على الباقة، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من تركككم الضعيف يقهر، والضعيفة المسلوبة بالنهار لا تنصر، والعدو غير قليل، والجمع غير مفترق. ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟! قربتم القرابة، وباعدتم الدين. تعتذرون بغير العذر، وتغضون على النكر، كل امرئ منكم يرد من سفيهه صنع عن لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً! ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب، حرام على الطعام والشراب حتى أسلوبها بالأرض هدماً وإحراقاً. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني لأقسم بالله لآخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول: أنج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم قناتكم. إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم

---

(1) سميت كذلك لأنه لم يحمد الله فيها؛ والبتراء المقطوعة المشوهة.

معصيتي، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها، من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله. فإياي ودلج الليل فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه. وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة. فمن أغرق قوماً أغرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه. ومن نقب قلباً نقبنا عن قلبه. ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً. فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني. ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه. وقد كان بيني وبين قوم إحَنٌ فجعلت ذلك دَبْرَ أذني وتحت قدمي. إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا، ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره. فاستأنفوا أموركم. وأعينوا على أنفسكم، قرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس! إنا قد أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا. ولكم علينا العدل فيما ولينا. فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا. وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي!.

الحجاج بن يوسف

(41 - 95 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو محمد الحجاج ابن يوسف الثقفي ستة 41 في مهد الخمول والفقر. فزاول مع أبيه تعليم الصبية بالطائف؛ إلا أن نفسه الرغيبة الطامحة ربأت به عن الضعة فلفت إليه بذكائه روح ابن زنباع الجذامي أحد أعوان عبد الملك ابن مروان فجعله في شرطته. ورأى الخليفة انحلال عسكره فشكا ذلك إلى روح ابن زنباع فدله على الحجاج، فقلده إمرة الجند فسلكهم في النظام وردهم إلى الطاعة. ثم اشتهر أمره ونبه ذكره بقيادة الجنود إلى عبد الله ابن الزبير، وقد دعا إلى نفسه بالحجاز، فحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه فثبتت كفايته وسمت مكانته في نفس عبد الملك، فولاه العراق وهو يضطرب بفتنة الشيعة، ويضطرم بثورة الخوارج، فعسفهم عسفاً شديداً أزل أعناقهم، وطأطأ إشرافهم، وعاد بهم إلى حظيرة الجماعة يتعثر في أشلائهم، ويخوض بهم في دمائهم.

وبقي طول حياته بالعراق دعامة لملك عبد الملك وابنه الوليد يضبطه ويبسطه حتى طبق ما بين الشام والصين. ثم مات بواسط سنة 95هـ.

أخلاقه ومواهبه

كان الحجاج طماحاً إلى السلطان والمجد، فسلك إليهما سبيل الظلم والقسوة، وتذرع لنيلهما بالفصاحة والقوة، ورزقه الله من طلاوة اللسان وقوة الجنان القسط الأوفر، فانتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة النافذة. قال له عبد الملك يوماً: كل امرئ يعرف عيوب نفسه، فصف نفسك ولا تخف عني شيئاً. فقال: " أنا لجوج حقود حسود. ومتى كانت هذه الصفات في متسلط أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا " وكان فصيحاً قوي الحجة لا يكاد يعدله في ذلك أحد من اهل زمنه. قال مالك بن دينار: " ما رأيت أحداً أبين من الحجاج: إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه

عـنهم وإسـاءتهم إليـه حتـى لأحسـبه صـادقاً وأظـنهم كـاذبين " مـع أنـه قتـل مـنهم بالصـبر مائـة وعشـرين ألفـاً، وتـوفى وفـي سـجونه مـنهم خمسـون ألـف رجـل وثلاثون ألف امرأة.

نموذج من خطبه

لمـا قـدم الحجـاج أميـراً علـى العـراق دخـل المسـجد معتمـاً بعمامـة قـد غطـى بهـا أكثـر وجهـه، وصـعد المنبـر وهـو متقلـد سـيفه متنكـب قوسـه، ومكـث سـاعة لا يتكلم.

فقـال النـاس بعضـهم لـبعض: قـبح الله بنـي أميـة إذ تسـتعمل مثـل هـذا علـى العـراق! وهَـمَّ عُميـر بـن ضـابئ البرجمـي أن يرجمـه، فمنعـه النـاس حتـى يـروا عاقبـة أمره. فلما رأى الحجاج عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنـا ابـن جـلا وطـلاع الثنايـا متـى أضـع العمامـة تعرفـوني

يَـا أَهْـلَ الْكُوفَـةِ؛ إِنِّـي لأَرَى رُؤُوسًـا قَـدْ أَيْنَعَـتْ وَحَـانَ قِطَافُهَـا ، وَإِنِّـي لَصَـاحِبُهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الدِّمَاءِ بَيْنَ الْعَمَائِمَ وَاللِّحَى!.

هَـذَا أَوَانُ الشَّـدِّ فَاشْـتَدِّي زِيَـمْ قَـدْ لَفَّهَـا اللَّيْـلُ بِسَـوَّاقٍ حُطَـمْ

لِـيسَ بِرَاعِـي إِبِـلٍ وَلا غَـنَمْ وَلا بِجَـزَّارٍ عَلَـى ظَهْـرِ وَضَـمْ

ثُمّ قَالَ :

قَـدْ لَفَّهَـا اللَّيْـلُ بِعَصْـلَبِيَّ

أَرْوَعَ خَـرَّاجٍ مِـنَ الـدَّوِيّ

مُهَـاجِرٍ لِـيسَ بِـأَعْرَابِيّ

وَقَالَ :

قَـدْ شَـمَّرَتْ عَـنْ سَـاقِهَا فَشُـدُّوا وَجَـدَّتِ الْحَـرْبُ بِكُـمْ فَجِـدُّوا

وَالْقَـوْسُ فِيهَـا وَتَـرٌ عُـرُدُّ مِثْـلُ ذِرَاعِ الْبَكْـرِ أَوْ أَشَـدُّ

لابُـدَّ مِمَّـا لِـيسَ مِنْـهُ بُـدُّ

إِنِّي وَاللَّهِ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا يُقَعْقَعُ لِي بِالشِّنَانِ ، وَلا يُغْمَزُ جَانِبِي كَغْمِزِ التِّينِ، وَلَقَدْ فُرِرْتُ عَنْ ذَكَاءٍ ، وَفُتِّشْتُ عَنْ تَجْرِبَةٍ ، وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ نَثَرَ كِنَانَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَعَجَمَ عِيدَانَهَا ، فَوَجَدَنِي أَمَرَّهَا عُودًا ، وَأَصْلَبَهَا مَكْسَرًا ، فَرَمَاكُمْ بِي لأَنَّكُمْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ فِي الْفِتْنَةِ ، وَاضْطَجَعْتُمْ فِي مَرَاقِدِ الضَّلالِ .

وَاللَّهِ لأَحْزِمَنَّكُمْ حَزْمَ السَّلَمَةِ ، وَلأَضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الإِبِلِ ، فَإِنَّكُمْ لَكَأَهْلِ قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَقُولُ إِلا وَفَيْتُ ، وَلا أَهُمُّ إِلا أَمْضَيْتُ ، وَلا أَخْلُقُ إِلا فَرَيْتُ ، وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَنِي بِإِعْطَائِكُمْ أُعْطِيَتِكُمْ ، وَأَنْ أُوَجِّهَكُمْ لِمُحَارَبَةِ عَدُوِّكُمْ مَعَ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ . وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللَّهِ لا أَجِدُ رَجُلا تَخَلَّفَ بَعْدَ أَخْذِ عَطَائِهِ بِثَلاثَةِ أَيَّامٍ إِلا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ